

إضاءات نقدية (فصلية محكمة)

السنة الأولى - العدد الثالث - خريف ١٣٩٠ ش / أيلول ٢٠١١ م

## السرد واللغة في رواية «التلصص» لصنع الله إبراهيم

على گنجیان خناری\*

زهرا پاک نهاد\*\*

### الملخص

تعتبر الرواية من أبرز الفنون الأدبية ولها مكانة متميزة في الأدب العربي المعاصر. فالرواية في عصرنا الحاضر تتناول الموضوعات الواقعية، وصارت مركزيتها تصويراً من الحياة، كما نلاحظ هذا الأمر في رواية «التلصص» لصنع الله إبراهيم. يعتبر «صنع الله إبراهيم» من نجوم الأدب السبيني، وقد صور لنا في هذه الرواية مصر في عام ١٩٤٨م، فيتحدث في بنائه الروائي عن الماضي مناقشاً القضايا المعاصرة في القاهرة.

ونستعرض في هذا المقال طريقة سرد الرواية عند هذا الكاتب في «تلصص»، وهو يعنى بالتفاصيل معتمداً على صلات الطفل الراوى بالبيئة والشخصيات، ويتحدث فيها عن أبطال الرواية على حسب المواقف التي تقتضى الكلام.

الكلمات الدليلية: صنع الله إبراهيم، رواية التلصص، السرد واللغة.

\*. عضو هيئة التدريس بجامعة العلامة الطباطبائي - أستاذ مساعد.

\*\* خريجة جامعة آزاد الإسلامية في كرج.

التنقيح والمراجعة اللغوية: د. هادي نظري منظم

Aligangyan1968@yahoo.com

تاريخ القبول: ١٣٩٠/٧/٢٣ هـ. ش

تاريخ الوصول: ١٣٩٠/٧/٢ هـ. ش

## المقدمة

تعتبر «التلصص» الرواية التاسعة من روايات صنع الله إبراهيم. (القاهرة، ٢٠٠٧م) ويهدف الكاتب فيها تسليط الضوء على القضايا الهامة التي ملأت ذهنه وكونت همومه. ربّما أراد الكاتب من خلال تلصصه على الماضي أن يطرح أفكاره بشكل غير مباشر؛ فهو يتسلل إلى أحوال مجتمعه، ويرى بعينه ويسمع بأذنه ويدرك بكلّ حواسه واقع الحياة اليومية، ويجد من خلال هذه الأعمال أجزاء مضيعة من ذاته، ويفتح لنا النافذة التي كانت مغلقة في حياتنا وأفكارنا؛ وهكذا تزداد بصيرتنا بما يجرى في أنفسنا ومجتمعنا، ويزول النقاب عن الأعمال، وترسم لنا صور واضحة من حياة شعب مسلم و... فتحدّد لنا ماهية الرواية من العناصر الهامة في البنية الفنية عند الكاتب كالسرد، والحوار، واللغة، والبيئة، والشخصية، وغير ذلك.

## عنصر السرد في "التلصص"

تعدّ الرواية إحدى الأشكال القصصية الحديثة التي تشمل التجارب الإنسانيّة، وتعالج مشكلات الحياة وتضم الشخصيات الواقعيّة أو الخياليّة، فتقوم على العناصر التي يتفق عليها أكثر الأدباء والنقاد، وهي: الشخصية، والحدث، والسرد، والحوار، والوصف، والزمان، والمكان، واللغة.

وفي دراسة الرواية نجد مجموعة العناصر المهمة التي تعدّ من أهمّ معالم البناء الفنّي لها. والسرد من الأدوات الفنيّة التي يستخدمها الكاتب للوصول إلى غاية قصّته، وهو العمود الفقريّ تركّز عليه الأدوات الأخرى كالحوار والوصف وغيرهما. فالسرد هو دراسة القصّ واستنباط الأسس التي يقوم عليها وما يتعلق بذلك من نظم تحكم إنتاجه وتلقيه. (الرويلي والبازغي، ٢٠٠٠م: ١٧٤)

والسرد هو فنّ تعبير الألفاظ عن الوقائع ليبيّن لنا الصورة المتخيّلة إلى الصورة اللغوية من خلال نقل الجزئيات مع الأحداث. ونعتبر السرد من الأدوات الفنيّة للوصول إلى غاية القصة وأهدافها. (المصدر نفسه: ١٧٤)

هذا المقال يلقي الضوء على أهمّ الأساليب التي تجعل من «التلصص» بنية فنيّة متكاملة. نشرت هذه الرواية سنة ٢٠٠٧م في القاهرة (دار المستقبل العربي)، وفيها يعالج الكاتب الأحداث التي جرت عام ١٩٤٨م في عاصمة مصر، وذلك على لسان طفل راو متلصص. وقد سرد «صنع الله إبراهيم» في إطارها العام الأحداث اليوميّة في حياة الناس ليصور لنا عودته إلى أربعينات القاهرة في «تلصصه»، وهو يعنى بالتفاصيل معتمداً على صلات الطفل الراوى بالبيئة والشخصيات.

يحكى صنع الله روايته بالطريقة التاريخية أو التقليدية التي يعتمد الراوى فيها على ضمير الغائب، كما نرى اعتماده على ضمير المتكلم في طريقتة الذاتية، فيستخدم أسلوب الاسترجاع ليعود بنا عبر رحلة تذكاريّة إلى الحياة السعيدة الماضية. تتعدّد مستويات السرد عند الكاتب في هذه الرواية ممّا ينقل الطفل من مشاهداته أو ممّا يتذكره في خواطره بشكل التداعى الحرّ في زمن ذاكرته، فيسترجع الطفل ليتذكّر خواطره مع أمّه، إذ «تكتب فيه بالقلم الرصاص بحروف كبيرة. ينتهى السطر فتترك السطر التالي، وتواصل الكتابة. تقرّأ لأبى بعض ما كتبت. أسمع اسم هتلر وغاندى ومايلز لامبسون.» (إبراهيم، ٢٠٠٧: ٢٧)

فالسرد عملية إنتاج يمثّل فيها الراوى دور المنتج، والمروى له دور المستهلك، والخطاب دور السلعة المنتجة. فهو الذى يتمّ من خلاله تحويل الحكاية إلى قصة فنيّة. وهو يشمل الراوى والمنظور الروائى وترتيب الأحداث. (زيتوني، ٢٠٠٢م: ١٠٥)

فلذا اختار الروائى صنع الله إبراهيم طفلاً لتلصصه على التاريخ، لأن يكون بطلاً بريئاً في جودة عنوان روايته وجولانه في امتداد الرواية.

يمعن الراوى النظر في القضايا السياسية والاجتماعية أكثر من اللازم لتعتبر روايته الرواية السياسية - الاجتماعية، وأن يلمح إلى الأوضاع الثقافية والدينيّة والأخلاقية في المجتمع المصرى.

وتعتبر وسيلته «التلصص» على المجتمع والحكومة في هذه الرواية ليدخل في الخطوط الحمراء، وليرينا الحقائق المرّة التي تمتلئ بالنفاق والزيف والخداع على لسان

صبي برئ.

ونجد للسرد طرقاً مختلفة، منها: الطريقة التقليدية أو المباشرة؛ وهي طريقة الكاتب ليعتمد على ضمير الغائب، كأنه مؤرخ في روايته؛ وطريقة السرد الذاتي: وفيها يستخدم الراوى ضمير المتكلم ويجعل الكاتب نفسه إحدى شخصيات قصته؛ وطريقة رسم الرسائل أو المذكرات: وفيها يسرد الكاتب الحوادث بواسطة الرسائل أو المذكرات؛ وطريقة تيار الوعي: وهي تشمل النجاوى الداخلية التى ربّما تكون على لسان الشخصية نفسها من الأحداث فى الماضى أو التأمّلات والأحلام أو الآمال فى المستقبل متدفّقاً الذكريّات والأحلام والتصورات من خلال مناجاة الكاتب مع نفسها. (جمع من المؤلفين، ١٩٩٩م: ٣٤٧)

وتكون طريقة الرواية مسيرالكاتب للبلوغ إلى أهدافه فى القصة؛ فيجب أن يكون البناء متلاحم الأجزاء فى سرد الأحداث والوقائع ومتناغم الموضوع والواقع. فنحن نعلم أنّ بناء الرواية يختلف عند الرواة، وربّما بينى صنع الله إبراهيم هذه الرواية على أساس النوع التقليدى، لأنّنا نشاهد ترتّب الأحداث فيها من البداية، وتستغرق الرواية فترة طفولة الراوى حتّى سنّ العاشرة فتسير الحياة حسب النتائج المنطقية. ليس الطفل الراوى عالماً بكلّ شيء، بل إنّهُ الطفل الذى يقدّم لنا ما يراه ممّا يقع أمامه ويشارك فيه، كأنّنا نرى هذه المشاهدات من عين الكاميرا. وقد أشارت الأدبية والشاعرة المصرية فاطمة ناعوت إلى هذا الموضوع قائلة: الراوى غير عليم. يحكى الحوادث وقت حدوثها ولا يعلم مآلاتها ولا مقدّرات الشخصوص. فهى تعتقد أنّ البنية السردية فى هذه الرواية تتحرّك بين الاثنين:

البنية السردية الأولى تتناول حوادث طفولة الصبي بين والده وأصدقائه والخدمات والجارات اللواتى كنّ يمثلن له أمّهات بديلات.

أما البنية السردية الثانية، وتظهر بالفونت الأسود الغامق، فذكريات عارضة يتذكرها الطفل مع أمّه الغائبة. (ناعوت: تلصّص على تلصّص صنع الله إبراهيم)

والضمير فى السرد هو عنصر لغوى صرفى وظيفته تمثيل أحد المشاركين فى عملية

الاتصال أو تبادل الكلام. والمتكلم الذى ينطق بالقول، والمخاطب الذى يتوجّه إليه القول، والغائب الذى يدور حوله القول، وكلّ حكاية تستخدم هذه الضماير (أنا، أنت، هو، هي، ...) لتشير إلى هذه الأطراف الثلاثة. فإسناد الأفعال إلى المتكلم فى النصّ السردى يدلّ على الراوى نفسه أو إحدى شخصيات الحكاية. وربّما يكون الراوى بطل الحكاية أو يكون الراوى فيها مجردّ شاهد أو مراقب. ولكن لا يمكن الراوى أن يكون البطل، لأنّه يروى ولا يفعل، بينما البطل يفعل ولا يروى. (زيتوني، ٢٠٠٢م: ١٢١)

فيستفيد الكاتب من ضمير الغائب فى وصفه ليسرد بالطريقة التقليدية، كما يستخدم ضمير المتكلم للطفل الراوى على هيئة الطريقة الذاتية: «أخلع النظارة التى ألققت بي اسم غاندى وأربط منديلاً فوق أنفى ثم أرتديها من جديد. أقرص خلف كوم من الحجارة ومسدّسى فى يدي.» (إبراهيم، ٢٠٠٧م: ١١)

يحاول الراوى أن يعود إلى الماضى، فيسرد بذاكرته على طريق تيار الوعى، ونرى فيه النجاوى الداخلية فى نفس الصبى وتداعياته الفكرية، فهو يتحدّث مع نفسه إذ يقول: «أتمنى لو أجد نفسى فى الفراش، فوق مرتبة على سجادة حجرة المسافرين إلى جوار الخادمة... يدها تعبت بشعرى وتتحسّس جلد رأسى. تنتهى الأغنية، فتحكى لى قصّة الشاطر حسن.» (المصدر نفسه: ٣)

يستخدم صنع الله إبراهيم فى روايته «التلصص» التقنيات الحديثة والأدوات الملائمة لها، بما يناسب موضوع روايته؛ فيعتبر من الذين يجدّدون فى بناء الرواية العربية المعاصرة. إنّه يكسر القوالب الاعتيادية والتقليدية ويزيّن أسلوبه السردى بهذه التقنيات. فنحن نتلقّى الرواية من عين الكاميرا بيد الطفل الراوى المتلصص، ونلتقط الصور والمشاهد الوصفية من خلالها، كما يتمتع من أساليب تيار الوعى كالتداعى الحرّ والمونولوج الداخلى والاسترجاع.

يمتاز صنع الله إبراهيم بأنّه أديب شعبى، لأنّه يخلق شخصياته وأحداثه فى أحياء القاهرة ساعياً إلى اتّحاد بين الرواية والأديب والمواطن. فيضعهم فى إطار الواقع المعيش، ويستمدّ من المادّة التاريخية الوثائقية ليدفع رواياته لذلك.

ويعتقد الدكتور سيد البحراوى بأنَّ صنع الله إبراهيم قد حققت له قدرته الفائقة على فهم الحياة والبشر على الأصعدة المختلفة نفسياً واجتماعياً وسياسياً وبالإجمال إنسانياً، حيث ينطلق الكاتب من درجة النضج الإنساني والفنّي الذي يكتسبه عبر رحلته من الحياة تجاوزت الستين، ورحلته من الفنّ التي تجاوزت الأربعين. (البحراوى، لاتا: ٩٥)

ونستلهم الوقائع التاريخية من نصّ هذه الرواية فى إطار الأحداث السياسيّة والاجتماعيّة خلال القرن العشرين. ويصوّر الكاتب مصر فى ١٩٤٨م، فيتحدّث فى بنائه الروائي عن الماضى مناقشاً القضايا المعاصرة فى القاهرة؛ فيصير الزمن الماضى زمناً حاضراً عند القارئ، فيتلقاه بعيونه المعاصرة معتمداً على اشتراكه مع الشخصيات والأحداث فى الواقع المعيش. وقراءته فى الأغلب تكون قراءة حوارية و وصفية من خلال الأساليب الفنيّة متفاعلاً مع النصّ المقروء.

### اللغة والحوار فى "التلصص"

تعتبر اللغة إحدى عناصر الرواية وهى نسيج النصّ، وبها تكشف كلّ مقاصد الرواية. تجمع فى ذاكرة اللغة، الأفكار والتعبير والمعانى. يجب على الكاتب أن تكون لغته أكثر ملائمة من وسائل بناء قصّته فى السرد والحوار والوصف وغيرها. والأفضل أن يكون مستوى اللغة بسيطة سهلة قريبة من الأفهام. فنرى فى بعض الروايات يرتقى الرواى بلغته إلى مستوى اللغة الأدبية النقيّة من شوائب العاميّة وربّما يهبها إلى اللغة العاميّة.

ويعتقد الدكتور طه وادى بأنّ: «الأدب فنّ يحتاج إلى قدرات إبداعية وأدوات تعبيرية. وإذا كان النحات الذى يصنع تمثالاً من الصخر أو البرونز أو الرخام يطوّع هذه المواد العسّية، فكيف يعجز أديب عن تطويع اللغة لحوار قصّة أو رواية؟!» (وادى، ١٩٩٢م:

(٤٨)

يتحدّث صنع الله إبراهيم عن أبطال روايته باللغة المتسقة مع الإيقاع الجميل، تلك اللغة التى تلائم الحوار والسرد والوصف. وهو يلحظ دقائق الأمور ويكتب عن شعبه، لأنّه يعيش بين الشعب ويكسر حواجز العرف والتقاليد فى أسلوبه الفنّي، مستخدماً

اللغة بالإيجاز والضرب في عمق المضمون. وربما استفادته من الكلمة الواحدة في هذه الرواية تنقل الأحاسيس التي يعاني منها أو تكشف لنا ما يدور في داخل بطل روايته من طموحات وآلام وآمال. ويعمد الكاتب في أحيان كثيرة إلى حذف الفعل والفاعل، ونجد المفعول به باقياً في النصّ فحسب، كما نرى في «دكان الخردواتي.» (إبراهيم، ٢٠٠٧م: ٢)، و«حارّة مظلمة» (المصدر نفسه: ١٧)، و«صوت قدمين على السلم.» (المصدر نفسه: ٤٤)

يخاطب صنع الله إبراهيم في روايته هذه جميع الناس من المثقفين وغيرهم مستخدماً لغة سهلة ميسورة واضحة، فلا يدنو من العامية المبتذلة. لغته لغة الشوارع ولغة واقع الناس، لكنه يرتقى بها إلى الفصحى، ويستمدّد من الشخصيات الحقيقية فيها محللاً بهم أوضاع المجتمع. ويلتزم أسلوبه اللغوي الأحداث وتكوين الشخصيات.

فلغة السرد عند إبراهيم وسيلة بحث وتحليل واكتشاف واعتراف، وهي أداة بحث تاريخي أو اجتماعي أو نفسي تشتبك بالمصادر والمراجع والشخصيات الحقيقية. فاللغة لم تعد وسيلة إحياء وترميز. والمادة المباشرة للسرد الأدبي هي الموضوعات الدينيّة والتاريخيّة والاجتماعيّة. (بنى عامر، لاتا: ١١)

يصوّر الكاتب لنا أحداث الرواية على قاموس الصبي البطل دون التمهيد، لأنّ الأطفال لا يعرفون المقدّمة والتمهيد. فنرى أنّ العبارات والجمل جاءت بسيطة الألفاظ قريبة المعاني دون أيّ تعقيد في نصّ الرواية.

ويرسم الراوي الشخصيات مقتدرًا مبينًا واقع الحال ويتحدّث عن همومهم والحرمان والفقر والنقائص العالقة في حياتهم. ونلاحظ أنّ عبارات الرواية تأتي موجزة ومحدّدة الهدف، وهي تشمل تعرية الواقعيّات واكتشاف النفاق بين الناس وإزالة الستار عن العلاقات بينهم.

فلاحظ في رواية «التلصص» أنّ الحوار لا ينفصم عن هيكل الرواية. ويرسم الكاتب صور الشخصيات من الطفل الراوي المتكلم إلى الشخصيات الأخرى، كما نرى أحوالهم ومشاعرهم. فيلمح الراوي رؤية الحياة الناطقة والمتفاعلة في بنية القصة. فنعتبر لغة الشخصيات صدى لمجموعة الأفكار التي تورد في ذهن الكاتب؛ فتقترب هذه اللغة من

الأفهام وتنسجم مع الشخصيات؛ فإنّ الكاتب يراعى فيها مقدرة المتلقى الثقافية والبيئية؛ فمستوى لغته سهلة وبسيطة.

ويشدد بعض الدارسين على أن يتم السرد بالفصحى. أما لغة الحوار فتختار بين العامية والفصحى. فيفضّل البعض اللهجة العامية أو المحكية، لأنّها لغة الناس وتقترب بالواقعية. فإذا أريد للحوار أن يكون واقعياً ومعبّراً عن الشخصية تمام التعبير، لزم أن يكون بالعامية. لكن لهذه مضارّها على المستوى القومى وعلى المستوى القصصى. (جمع من المؤلفين، ١٩٩٩م: ٣٧٤)

ويختار إبراهيم اللغة الفصحى فى سرد روايته، كما يختار العامية لغة للحوار، كقوله على سبيل التمثيل - لا الحصر: «تتوقّف أمام الجزار. يشتري أبى رطلاً من الكلاوى وخصية خروف. يدفع حساب الشهر الماضى. يسأله: أخبار أبوك إيه؟ يجيب بلهجة مستنكرة: قاعد مع العروسة.

يتبسم أبى: هنيئاً له.

- يصح راجل كبير يعمل كده؟

- يعنى عنده كام سنة؟

- أهو عدى الستين.

- يهزّ أبى رأسه: ناوى يخلف؟

- لا. الحمدلله مبتخلفش. بس عايز يكتب الدكان باسمها.» (إبراهيم، ٢٠٠٧م: ٦١)

فترى أساليب الحوار تختلف بعضها عن بعض - كما أشرنا إليها-. فربّما الإنسان يتحدّث مع نفسه أو يقوم بالحوار مع الغير. فالكاتب يستخدم هذين الحوارين ليتحدّث عن نفسه مباشراً أو غير مباشر. فيأتى الراوى أحياناً بأحداث فى الماضى أو أحلام فى المستقبل فيعتمد على النجاوى الداخلية وتتدفّق فيها ذكريّات الشخصيات أو أحلامها أو تصوّراتها.

ويستخدم الراوى الفعل المضارع من بداية الرواية إلى آخرها، ليذهب بنا إلى الماضى، فترى الماضى فى الحال. ويمزج الكاتب الماضى بالحال باستخدام الفعل

المضارع ويقارن بين هذه الأزمنة. وكأنَّ استخدام الفعل المضارع فضلاً عن الأسماء أو شبه الجملة يجعل في يد الطفل الراوى جهاز الكاميرا. ومع تتابع حركاتها نشاهد المناظر والأحداث، فيأخذ الطفل بأيدينا ليطلعنا على الحقيقة.

ونلاحظ امتزاج الشعر والنثر في «التلصص»، ولعل إيقاع كلماتها تدلنا على القصيدة النثرية في كثير من المواضع. ويختار الراوى ألفاظ روايته في دقة بالغة: «يسأل أبى عن الثمن. يشتري رطلاً.

نتَّجه إلى شارعنا. دكان الخردواتى مغلق... نحيف فى معطف ثقيل، بنى اللون، فوق جلباب من الصوف. حول رقبته كوفية بيضاء وفوق رأسه طربوش.» (المصدر نفسه: ٤)

تخلو الرواية من حروف العطف أو الربط أو المعوِّقات، وجملاتها خبرية قصيرة تخلو من الفاصلة أيضاً. فالطفل الراوى لا يكلف نفسه فى استخدام المفردات الصعبة، فلا يتلاعب بالألفاظ؛ ومن هنا تتكوّن الجمل عنده من كلمة أو كلمتين فى بعض الأحيان. فينبغى للقارئ أن يتحلى باليقظة الشديدة والانتباه الجيّد مستخدماً التدقيق لمتابعة سلسلة الأفعال التى تدخل الرواية: «دكان الخردواتى... الجزمجى.» (المصدر نفسه: ١) وأيضاً: «يشترى لى أبى كيساً من اللبّ. فيلمان. الأوّل قصير. عبارة عن حلقة من مغامرات جيس وجيمس. الثانى بلبل أفندى، لفريد الأطرش وصباح.» (المصدر نفسه: ٥٣)

وبالمناسبة لابد لنا من الوقوف قليلاً أمام بعض الكنايات والإشارات الواردة فى هذا النصّ الروائى. وعليه فنقول: يبدو أن الكاتب يلبس عباراته أحياناً ثوب الرمز، ويعلن فكرته بشكل مبطن. ومن هذه الكنايات: - تنسدل جفونى فى استسلام (المصدر نفسه: ٩)؛ أضع يدي على نظارتى خوفاً من أن تطير (المصدر نفسه: ٣)؛ الدم يفيض من خدودها (المصدر نفسه: ٣٨)؛ إنّ اللون الأسود ما زال هو الموضة (المصدر نفسه: ٨٦)، و... .

## النتيجة

وقد توصلت هذه الدراسة إلى عدة نتائج، منها:

- السرد من الأدوات الفنية للوصول إلى غاية الحكاية وأهدافها، وفى الواقع هو فن

تعبير الألفاظ عن الوقائع.

- يسرد "صنع الله إبراهيم" فى إطاره العام الأحداث اليومية فى حياة الناس ليصوغ لنا عودته إلى القاهرة فى الماضى بتلصصه عليها.
- يستخدم الكاتب لغة متسقة مع إيقاع جميل لتلائمها مع الحوار والسرد والوصف، ولتكون وسيلة للبحث والتحليل والاعتراف عند هذا الروائى.
- تستغرق الرواية عاماً كاملاً ونرى ترتب الأحداث فيه لتسير حياة الطفل الراوى على حسب النتائج المنطقية.

### المصادر والمراجع

- إبراهيم، صنع الله. ٢٠٠٧م. *رواية التلصص*. القاهرة: دارالمستقبل العربى.
- البحراوى، سيد. لا تا. *الأنواع النثرية فى الأدب العربى المعاصر*. الملتقى الثقافى الحضرمى: ww.hadramy.com
- بنى عامر، عاصم محمد أمين. *التجريب فى روايات صنع الله إبراهيم، الجامعة الأردنية*. مركز اللغات: <http://www.najah.edu/researches/658.pdf>
- جمع من المؤلفين. ١٩٩٩م. *المفيد فى الأدب العربى*. ج ٢. الطبعة الأولى. بيروت: دار العلم للملايين.
- الرويلى، ميجان والبازغى، سعد. ٢٠٠٠م. *دليل الناقد العربى*. ط ٢. الثقافى العربى.
- زيتونى، لطيف. ٢٠٠٢م. *معجم مصطلحات نقد الرواية*. الطبعة الأولى. بيروت: مكتبة لبنان ناشرون.
- ناعوت، فاطمه. «تلصص على تلصص صنع الله إبراهيم». النهار: <http://aljamal.sandbox.eghna.com/node>
- وادى، طه. ١٩٩٢م. *دراسات فى نقد الرواية*. الطبعة الثالثة. القاهرة: دار المعارف.